مهمة الشاعر فى الحياة وشعر الجيل الحاضر

– همس الشاعر – الهيام

أمّا عن الكتاب الأول وهو « مهمة الشاعر فى الحياة وشعر الجيل الحاضر » فهو رسالة فى ٧٢ صفحة من الحجم المتوسط بقلم سيد قطب قرأتها بلذة وطويتها على نية أن أعود الى قراءتها عند ما تتاح الفرصة لأستمتع بها مرة اخرى إذ وجدت بينها وبين رأيى تجاوباً وصدًى . وفى الحق ان سيد قطب شاعر رمزى دقيق الحس يعرف قيمة الشعر ومرتبة الشاعر فهو يطير بأجنحته فى آفاق الشعر الحىّ ويهبط الى أعماق مناجمه ليعود من ذلك بالشعر لا بالنظم ، وهو فى رسالته هذه يؤدى للناظمين واجب التعريف بالشعر ليلتمسوا وجوهه على حق ويعرفوا أغراضه ومراميه ويدركوا ما يجب نحوه وما لا يجب ، فهو يرى أن الشاعر الحقيق بهذا اللقب لكى يؤدى مهمته على الوجه الأكمل لا بد أن تتوافر فيه صفتان أساسيتان :

الأولى : أن يكون إحساسه بالحياة أدق وأعمق من إحساس الجماهير على شريطة أن لا يقطع الصلة بينه وبين الجماهير بحيث يكون ذلك الاحساس واضحاً مميزاً عن إحساس كل من الآخرين .

والثانية : أن يعبر عمّا يحسّه بهذه الطريقة تعبيراً أسمى من تعابير الجماهير مُظهراً فى تعبيره هذا نفسه وتأثراتها بما شاهدت وأحسّت لا أن ينقل لنا الصور كما تراها سائر العيون وبعبارة أخرى أن تكون له فى الحياة فلسفة خاصة به منشؤها إحساسه الشخصى يفسّر الحياة على ضوئها ويظهر للناس بعنوانها .

ويرى أن مهمة الخيال فى الشعر أن يكون صلة بين الانسان القاصر والحقيقة المحجّبة ليقرّبها الى فهمه ولذلك فهو يرى ان الشعر يعبّر عن الحقيقة ، غير أن

هذه الحقائق التى يعبر عنها هى من نوع آخر غير الحقائق التى تعنى بها الفلسفة لأنها حقائق الحس الخفى التى قد يختلف فى تقديرها كل فرد عن الآخر حسب الأمزجة والمشاعر . وليكون الخيال قريباً من الحقيقة يجب أن يكون متناسقاً متآلفاً ؛ وقد يكون تناسق الخيال وتنافره راجعاً الى ذوق الشاعر كما قد يكون للبيئة أثرها فى الذوق . ثم يتكلم عن التعبير الشعرى والتعبير النثرى وان الأول يتميز على الثانى لأنه يريك جانباً من المعنى أو الصورة ويترك للذهن استلهام بقيتها وللخيال تكملتها ؛ ذلك لأن الشعر يخاطب العاطفة المبهمة التى لا تعرف حدوداً أو قيوداً أكثر مما يخاطب الفكر المحدود . ثم يتكلم عن شخصية الشاعر وهو فصل مكرر بشىء من الزيادة من الفصل الثانى فى الرسالة . وهو يأخذ على القائلين بوجوب أن يكون الشاعر صورة لعصره لا لشخصه ؛ ويعترض على ذلك بأن البيئات تكيف مشاعر الفرد العادى الى حد كبير بلمة الشاعر السريع التأثر ، فاذا عبر عن إحساسه الشخصى فانما يعبر عن بيئته لأن إحساسه وليد التأثرات المحيطة ...

هذه نظرات سريعة فى رسالة سيد قطب أنصح الأدباء والمتأدبين بالاطلاع عليها سواء اتفقوا أم اختلفوا ومؤلفها الفاضل فى آرائه الفنية وكيفية تطبيقها والاستشهاد عليها .

« • »

وأما الكتاب الثانى وهو « همس الشاعر » فمجموعة من النظم فى مائة وسبعين صفحة من القطع المتوسط بقلم الدكتور جورج صوايا صاحب مجلة « الاصلاح » التى تصدر فى بوانس إيرس بالأرجنتين ، نظمها الشاعر كما يقول إبان ثورات نفسية ، وهى فى نظره نقطة أرسلها فى خضم الأدب العربى البعيد القرار فسواء ساقتها الأمواج الى الشاطىء أو ابتلعتها اللجج هابطة بها الى الاعماق فانها لن تلبث فى عرفه أن تتحلل فيه انحلال الأجسام فى تربة الأجداث . ولقد أعجبنا من ديوانه بقوله :

تلوى عليَّ وألوى فيلتقى الخدُّ بالخدّ
وثمَّ تبعد عنى فيكمل الجزْرُ والمدّ
تُعلى وتُخفض صدراً كالموج إذ تتنهدْ
فما أحيلاه بحراً أرغى عليَّ وأزبدْ !

وقوله :

ان الفضيلة بين الناس قاطبة سفينة دكّت الانواء صاريها
والكسب في الخلق مجذاف تقاذفهم والشرُّ باخرة ألقتْ مراسيها !

وقوله في قصيدة « تأملات أمام الموت » :

أيها الراكبُ متنَ الغسقِ
صامتاً يخطب بين الصامتين !
هل تبيّنتَ خيوط الفلقِ ؟
هل بعيد الليل قد شمّتَ الصباحْ ؟

وقد يعتذر الناظم عما في ديوانه من هفوات ومن مآخذ بأن مهنة الطب التي يزاولها لا تسمح له بالوقت الكافي للغوص في أثر لآلىء البيان ليجيء ديوانه كما كان حقه أن يجيء ، ولكنه ما دام في نفسه باعثٌ على الشعر وباعثٌ على نشره فلابد أن يأخذ من وقته ما يسمح له بالنظر والتغيير ، فأما القصائد التي احتفظ بها في الديوان لارتباطها بتذكارات طيبة وهو يرى أن اتلافها كان أَوْلى فمن واجبه في مجموعة أخرى أن لا يحتفظ بمثلها مادام يقدّم في خِضَمّ الأدب العربي نقطة وسواء ساقها الموج الى الشاطىء أم ابتلعتها اللجج فان خضم الأدب غير خضم العدم يجب أن يلقى المرء ما يجب أن يصل الى الشاطىء ، إذ لم يقتل الشعر العربي مثل شعر المناسبات الصناعي.

« • »

وأما الكتاب الثالث وهو « الهُيام » فديوان ضخم يقع في ٣٢٦ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة الكشاف ببيروت ، بقلم عبد الرحيم قليلات. وفي هذا الديوان يتربع شعر المناسبات على عرشه ويحتمي بين صفحاته ، ويبدو لي أن ناظمه الفاضل فكِهُ الروح مَرِحٌ تملك عليه الفكاهة سبيله في كل شيء فهو يقول عند ما يتحدث عن السفور والحجاب :

وكل دولةٍ لها رجالُ وكل مهرةٍ لها خيّالُ
وكل أمةٍ لها أقيالُ وكل قحةٍ لها غربالُ.
وكل فولةٍ لها كيّالُ والمتّقون هُمُ الأبطالُ !

فروح الفكاهة فيه تأسره وتقوده وهو فى المواقف التى لا تجب فيها الفكاهة ! والحقيقة أن نظمه الفكاهى على غاية من الظرف ، غير أن من الواجب على السيد قليلات أن يأخذ دواوينه قبل طبعها بالدرس والتصفية وأنا زعيم له بعد ذلك اعجاب القراء ، على أن مَنْ لم يعجب كثيراً بما فى هذا الديوان فانه سيعجب بجمال طبعه وأناقته فان عناوين القصائد والأناشيد كُتبت بأجمل الخطوط كما ذُيِّل الديوان بنوتات موسيقية للأناشيد !

عبد كامل الصيرفى

***

ديوان زكى مبارك

نظم الدكتور زكى مبارك . صفحاته ١٥٨ بحجم ١١¾ × ١٦½ سم .
مع مقدمة نقدية بقلم صاحب الديوان . مطبعة حجازى بالجمالية بالقاهرة
ويُطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع
محمد على بالقاهرة . الثمن خمسون مليماً خلاف البريد

يُولَدُ الشاعرُ مطبوعاً ولن تخلقه الظروفُ وإنْ أنطقتْه وأوحت اليه ، والشاعر شاعرٌ أينما كان وكيفما كانت أحوالُه وأعمالُه الخاصةُ . ومن الجناية على الشعر أن نتحدث جدّياً عمن يُدعون بشعراء الكتاب وأن نُنكر عليهم شاعريتهم ، فالشاعريةُ تتجلّى كيفما كانت أداةُ التعبير نثراً أم نظماً ، ومهما تباعدت عن النظم فهى لن تختفى ، وهى لو تخلّتْ عن كلٍّ من النظم والنثر لما فاتها أن تظهر فى صور أخرى من الحيوية . هذا هو رأينا الخاص وإنْ دارت على صفحات هذه المجلة وغيرها محاورات شتّى تخالفه .

جرتْ هذه الخواطر فى ذهننا حينما تناولنا الديوانَ الرشيقَ الذى أتحفنا به الدكتور زكى مبارك جامعاً لمختارات من شعره فى تسع وستين قصيدة ومقطوعة تتضمن سبعة وخمسمائة من الأبيات ، فى شتى الخواطر العاطفية من حب ووطنية وقد أحسن الدكتور زكى مبارك بتلبية دعوة أصدقائه لنشر هذا الديوان ، وليس إحسانه بالمقصور على نفسه ولا على من يشاركونه فى أحاسيسه أو ينتسبون اليها ؛

ولكنه يعمّ الشعراء المتلّين الذين فلما يُعنون بجمع شعرهم ولا باختيار نماذج منه ، فيفوّتون على محبّي الأدب الاستمتاعَ بعواطفهم المنظومة المرسومة فى صور شعرية جديرة بأن تُحبّ وتذاعَ . والحقّ أن الدكتور زكى مبارك لم يكن أصلاً بالشاعر المقلّ وهو يعترف بذلك فى المقدمة التاريخية التحليلية البديعة التى صدّر بها ديوانه ، (بعد اهدائه الشعرى المؤثر الى رمزحبه الأول الدفين) ؛ ولكنه يقول فى مقدّمته إنّ شخصية الشيخ سيد المرصفى الذى صحبه سبعَ سنين وشخصية الشيخ محمد المهدى زيكو الذى صحبه خمسَ سنين أثّرتا فيه تأثيراً بليغاً فصار يؤثر الاقلال . وتحولت شاعريته أو غالبها الى النثر الفنى والى مظاهر أخرى أدبية ، وكان من ردّ الفعل أن أصبح شاعرنا لا يرضى عن الكثير من شعره القديم الذى لم ينشر منه فى هذا الديوان الاّ نتفاً قليلة على سبيل المثال أو الوفاء ولم يرحم بعضها من نقده الشديد حتى أغنانا عن نقدها .

نُوصى قراءنا إذنْ بالاطّلاع على مقدمة هذا الديوان بل بالامعان فيها ، فقد أرّخ فيها صاحبُ الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفةٍ خاصة ، ولولا ضيقُ المقام لآثرنا نشرها برمتها فهى من النثر الفنى الرشيق الجميل ، وهم بعد قراءتها سيتذوّقون هذا الشعر بإعجاب أوفى وسيشاركون الشاعر فى عواطفه باخلاص أتمّ

الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظُه موسيقىٌّ كصوته المعروف بخلابته ، وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية ، وبيننا مَنْ يُزرون بالشعر الغنائى على اعتبار أنه لونٌ مألوفٌ من الشعر وكأنه شبهُ مبتذَل . ولكننا فى حاجةٍ دائمةٍ الى جميع فنون الجمال الشعرى إذ لا يمكن لامة حية أن يشبع نهمها ، والفنان يفتش عن الجمال أينما كان وكيفما كانت صورته ، والاديب الناقد يقدّر معنا أننا فى حاجة الى الشعر الغنائى لا تقلّ عن حاجتنا الى غيره من ضروب الشعر الحىّ ، فانّ تيّار الأغانى العامية يكتسح الأدبَ العربى اكتساحاً وهيهات أن يقاومَ ذلك التيّارُ الاّ بما هو أقوى منه . والنظرة النقدية المستوعبة لن يفوتها أن ترى فى هذا الشعر ما يمثل الأدب الحديث صياغةً وروحاً ، وشاعرنا نفسه لم يفته التنبيه الى كل هذا فى مقدمته الجامعة .

لعلّ أكثر الشعر الخالص ليس من تخيّل العقل الباطن فقط بل من نظمه أيضا ، بحيث لا يكون العقل المدرك بثقافته ومعارفه الاّ بمثابة مستشار للعقل

الباطن المطلق الحرية ، فالشعر ككل الفنون ينحدر عن العاطفة وعن المخيلة لا عن الثقافة والمعرفة والادراك ؛ فهذه تيارات ثانوية وليست التيار الأصلي القوى : تيار العاطفة المتدفقة الحارة التي منها ينبع الشعر . وليس في هذا الوصف نكران لمزايا الثقافة العالية يستوعبها الشاعر المطبوع فتندمج في شعره بدل أن تسيطر عليه وتكسبه روعة على روعة . والشعر في ذاته جوهر فني أصيل له جماله الذي يحس به كل فنان أصيل كيفما كانت لغة التعبير ، فاذا اقترن بالموسيقى اللفظية الرائعة وكان هو في ذاته رائعاً كان التأثير مزدوجاً من تمازج فنين ، ولكن الشعر الحي في ذاته له موسيقاه المعنوية التي توحيها تعابيره وتموج عاطفته ولو لم يكن الشاعر ذاته مشغوفاً بتنميق النظم. وان أصدق الشعر ما أملته شاعرية مطبوعة لا غرض لها سوى التنفيس عن نفسها سواء أأرضت أم لم ترض أي انسان ، فهي تبدع عن سماحة طبع سواء ارتجالاً أو روية، في قليل أو طويل من الوقت ، في يسير أو كثير من صور الوجود التي تستجيب اليها ، مدفوعة بدافع وجداني لا يمكن أن يغالب وإن أمكن تحويله الى تعابير ورموز فنية أخرى غير تعابير ورموز الشعر .

ونعود الى شاعرنا فنجده أصيلاً مطبوعاً ، تقليدي النزعة غالباً ، متحرراً أحياناً ، غنائي الطبع دائماً . وقد كان مكثاراً فقاوم إكثاره كما أسلفنا وحوله الى نواح أخرى واكتفى بالنظم القليل . وعندنا أن شعره الوطني الأخير جدير بالاستمرار فان أبياته عن التمثال السجين (ص ١٣٦) التي سبق لنا نشرها في «أبولو» فيها العاطفة المقرونة بلذة التهكم على الأسرى الميتين وتنتظم ذلك موسيقى جديدة بارعة . فلو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها في نثره الفني لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ، وهذه الناحية من عاطفته لا يجوز أن تقاوم لو جازت معارضة أية ناحية من نواحي الشاعرية التي ينبغي أن تبقى دائماً طليقة لا تدين بغير حريتها .

في الديوان شعر كثير ممتاز كقصائده ومقطوعاته « بين الحب والمجد » و« على أطلال الجمال » و « القلب الذاهب » و« طفلة الحسناء » و « الى بعض الناس » و« ليالي سنتريس » و « ثورة على الوجود » و« الشباب والمشيب » و« أحبابي » وغيرها ، وقد سبقنا الشاعر الى مؤاخذة نفسه بنفسه فيما عرضه من شعر عتيق الديباجة أو ضعيف المعنى وإن كان متين السبك ؛ وما أثبت تلك النماذج من شعره القديم الا للذته النقدية ، للمتابعة التاريخية ، ولو أن هذا الديوان لا يجوز أن يعتبر تاريخاً وجدانياً شاملاً لصاحبه مادام مقصوراً على مختارات خاصة .

ويسرنا هنا أن نثبت نماذج مختلفة من شعر صاحب الديوان الذى نعدّه صورة لصاحبه فى روحه الغنائية وفى اعتداده بنفسه وفى حنينه التقليدى وفى نزوعه العصرى وفى بساطته الريفية وفى تأثره الأزهرى، الذى يبدو حتى فى بعض عناوينه مثل « لطفك ! » و« قضاء الله » ،دع عنك بعض تعابيره التى لا نستسيغها مثل قوله (ص ١١٧) :

تذكّرها الآصال ما كان بيننا فتَرْعَدُ منها أذرعٌ ونهودُ !

ولك بعد هذا أن تشاركنا فى نماذج من حسناته ، ونترك البحث فى الشذوذ اللغوى كاستعماله الاكمهون بمعنى الكمه لمثل العلامة مصطفى جواد . يقول صاحب الديوان فى « الحبّ الشامل » :

أشجاكَ ما خلفَ الستار ، وانما خلفَ الستائر لؤلؤٌ مكنونُ
والناسُ فى غفلاتهم لم يعلموا أنى بكلّ حِسَانِهم مفتونُ !

وهو بذلك يعلن حبّه للجمال فى غير تقيّدٍ بشخوصه ، وهو فيما نرى من شعره وفىٌّ لهذا المذهب .

ويقول فى تأنيب نفسه على طموحه ومخاطراته وخيالاته :

جَنَتْ عليَّ الليالى غيرَ ظالمةٍ إنى لأهْلٌ لما ألقاه مِنْ زمنى
فما رأيتُ مِنَ الأخطار عاديةً الاّ بنيتُ على أجوازها سَكنى
ولا لمحتُ مِن الآمالِ بارقةً الاّ تقحَّمتُ ما تجتاز مِنْ قُنَنِ
أحلتُ دُنيايَ معنًى لا قرارَ له فى ذمةِ المجدِ ما شرَّدتُ من وَسَنِ

وهى ذاتُ خيالٍ رائعٍ وجدّةٍ أخّاذةٍ .

ويقول فى قصيدة « ثورة الوجد » :

ألقيتُ بالنفس مِنْ هَواه فى لُجَّةِ السحرِ والفُتونِ

وفى قصيدة « على أطلال الجمال » :

فاندبْ رجاءَك فى دُنيا وُعِدْتَ بها أحالَها الدهرُ مَغْنًى غيرَ مأهولِ

وفى قصيدة « زفرة » :

لعمرى لئنْ شِبْتُ قبلَ الأوانِ لقد شاب حظّى وشابَ الزمنْ

وفى « ظلام الليل » :

وجنَّ علىَّ الليـلُ حتى حسبتُه ... جفاءَ كريمٍ أو رجاءَ لئيمِ

وفى « العام الفائت — ١٩١٩ » :

يقولون : عامٌ روَّعتْنا خطوبُهُ ... وسالتْ به منَّا الدماءُ الدوافِقُ
فقلتُ لهم : لا تُتبعوه مَلامةَ ... فقد بُعِثَتْ فيه الأمانى الصَّوادقُ

وفى « شوك الورد » :

أنتَ وردٌ فهبْ مُحِبَّكَ شوكاً ... أترى الوردَ عاش من غيرِ شوكِ ؟!

وفى « تحت صورتى » :

ولمَّا صار ودّ الناس خِتلاً ... وأوحشَ ربعُهُمْ من بعدِ أُنسِ
ولم أظفر على جهدى بحرٍّ ... تركتُ هواهمو وصحبتُ نفسى

وفى « زمان الصبا » :

ومَنْ لم يَنَلْ عند الشبيبةِ حظَّه ... مِنَ المجدِ لم يخضع له المجدُ ثانيا

وفى « فى سبيل الوفاء » :

حسبنا العلا وقفاً على كل مقتدٍ ... فضعنا وضيَّعنا الكمالَ على الذهنِ

وفى « رثاء فريد بك » :

وخرَّ على السريرِ وحُبُّ مصرٍ ... على تبريحِ علّتِهِ يزيدُ

* * *

فلا يشمتْ بمنعاكَ الأعادى ... ولا يَفرح ببلواكَ الحَسُودُ
فتلك بليةٌ لم يَنْجُ منها ... على إشراقِ عزتهِ (الرشيدُ)
ومَنْ يك مثلنا حسَباً ومجداً ... تُشجعهُ الصواعقُ والرعودُ

وفى « ثورة على الوجود » :

يا خافقَ البرقِ ترتاعُ القلوبُ له ... كوقدةِ الغيظِ فى أحشاءِ جبَّارِ!

وفى « موشحات الجزيرى » .

مُقطَّعاتٌ حسانٌ ... كفاتناتِ الخُدودِ

كأنهن الغوانى يمسين فى يوم عيد
أو خاطرات الأمانى يزرن قلب عميد
ما أجحد القلب إن لم يحيها بالسجود
وأظلم الدهر إن لم يجد لها بالخلود

وفى « غريب فى باريس » :

يقتات أشجانه وحيداً فلا صديق ولا قريب

وفى « نجوى القلب » :

ستأسو عذارى النيل آثار ما جنت عليك عذارى السين حين تعود

وفى « بقية وبقية » :

بقية من صباك الغض باقية وجذوة من غرامى وقدها باق
تعال نحيى شهيد اللهو ثانية ونصرع الهم بين الكأس والساق

وفى « الغنى فى الرأس » :

له مال وليس له رشاد متى أغنى الثراء عن الرشاد ؟
فإن يك جيبه أضحى غنياً فما فى رأسه غير الكساد !

وفى « قلب المغفل » :

لقد لامنى لما بخلت بخاطرى عليه ، ولم آمن ضلالته فيه
فقال : أتخشى أن يذيع لغفلتى ؟ ! فقلت : أجل ! قلب المغفل فى فيه !

وفى « إلى فلان » :

تطلبت أقدار الرجال ولم تكن بذى أدب ، لاصانك الله من غر !
أتحسب أن المجد سهل طلابه فتطلبه باللؤم ، ويلك ، والكبر ؟ !

وفى كل هذا الشعر صور شتى من عواطف الشاعر وخواطره هى مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة . ولو سئلنا عن أروع شعر الديوان فى القوة والعاطفة البالغة الأثر لقلنا بغير تردد : قصائد « تعلة الكريم » (ص ٦٥) و « ليالى ستريس » (ص٩٢) و « ثورة على الوجود » (ص٩٦) و « غريب فى باريس » (ص ١٠٨) ، ولقد كان شاعرنا أمينا بفطرته كما قلنا فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ؛ وكفى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير فخراً لأى شاعر ، فان هذه الصفة هى الصفة الخالدة التى لن ينال منها أى نقد ، والتى تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .